

المحاضرة الرابعة: نظرية العقد الاجتماعي

هدف المحاضرة: التعرف على نظرية العقد الاجتماعي وعلى أهم منظرها

ورد في العديد من تآليف العلوم السياسية ثلاثة من المفكرين في قارة أوروبا تناولوا نظرية العقد الاجتماعي بشيء من التحليل والتفصيل، وهم: توماس هوبز، جون لوك وجون جاك روسو، فمن يكون هؤلاء؟ وما هي آراؤهم في مجال نظرية العقد الاجتماعي؟

1- توماس هوبز (Thomas Hobbes) 1588-1679:

يبدو أن هوبز جمع بين عدة علوم؛ فقد كان فيلسوفا وعالم رياضيات وعالم سياسة واقتصاد، مؤرخ ومترجم إنجليزي، يعتبر المؤسس الفعلي لنظرية العقد الاجتماعي الخيالية والافتراضية، وهو مناصر حقيقي للملكية المطلقة، ومن أهم أفكاره أن الدولة والمجتمع لا يمكن أن يكونا آمنين إلا تحت التصرف المطلق للحاكم، ومن أهم ما كتب هوبز "اللفيathan"، الذي نشر سنة 1651، وهو الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة، تناول فيه نظرية العقد الاجتماعي والسلطة المطلقة للدولة، وحسب ما نعتقد ببساطة لأنه كان في خدمة العائلة المالكة (موظف بلاط).

كثيرة هي المصادر والمؤلفات التي تقر بريادة هوبز لنظرية العقد الاجتماعي، الذي بين بأن الطبيعة منذ أمد طويل كانت تعج بأشخاص متقاتلين، والقوي منهم يسيطر على الضعيف، وأن الغرائز هي التي تحرك الإنسان إذ لم يكن هناك أي وجود للسلطة التي تنظم العلاقات بينهم، وبالتالي تحقق لهم النظام، الحماية، الأمن والاستقرار، إلى أن اهتدى الناس إلى طريقة يمكن أن تحقق لهم ما يريدونه، فما كان منهم إلا أن وقعوا عقدا مع حاكم (التوقيع حالة تصويرية وافتراضية)، طالبين منه تفويض أمورهم كلها له، وتنظيم العلاقات بينهم، ويمنع هذا الحاكم الظلم فيما بينهم، ويحقق لهم الهدوء مقابل تعهد الناس - المحكومين - بالطاعة وعدم المخالفة وإن تطلب الأمر بالحكم المطلق، يبدو من خلال ما تقدم أنها نظرية تمجد نظام الملكية المطلقة، وهي استمرار لنظرية الحق الإلهي للملوك في الحكم.

*2- جون لوك John Locke 1632-1704:

مفكر سياسي وفيلسوف وطبيب إنجليزي، عاش في عصر التنوير، عرف باسم الليبرالية الكلاسيكية، وأثر في العديد من المفكرين أمثال: فولتير، روسو، جون ستيوارت مل وبرتراند راسل...، ترك لوك عدة مؤلفات عكست أفكاره، ومنها نذكر: (روح التسامح، رسالتان عن الحكومة، معقولة المسيحية ومقالة عن العقل الإنساني، وبعض الأفكار عن التربية والتعليم...)، وفيما يخص وجهة نظر لوك في نظرية العقد الاجتماعي فإنه قد خالف هوبز، إذ تحدث عن علاقات طيبة محترمة ولطيفة بين الناس وأنهم كانوا يحتكمون إلى قانون طبيعي غير مكتوب، ولكن من أجل تنظيم العلاقات بينهم ارتأى هؤلاء الناس إلى التخلي عن جزء مما يتمتعون به للحاكم (السلطة الحاكمة)، ولكن إذا ما تعسفت السلطة الحاكمة في ذلك الجزء من الحقوق فإن الناس قد يتحركوا بقوة وعنف لإعادة الأمور إلى ما كانت عليه .

يذكر لوك واجبات السلطة الحاكمة هي توفير الأمن، الحرية والاستقرار، والعقد الاجتماعي ما هو إلا تمثيلية برلمانية ديمقراطية على حد قوله.

*3-جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau 1712-1778:

من المفكرين الذين احتلوا مكانة متميزة في الفكر الإنساني، هو كاتب وأديب وعالم نبات سويسري ومن أهم فلاسفة عصر التنوير، من أهم أعماله كتاب "العقد الاجتماعي"، ويذكر أن كتاباته مهدت للثورة الفرنسية سنة 1789، فقد تحدث عن عقد بين الجماهير والإرادة العامة لهذه الجماهير، وتقرير ذلك يكون بانتخاب من يمثل الجماهير في حكم الدولة.

يبدو أن مفهوم روسو لنظرية العقد الاجتماعي مفادها أن الإرادة العامة للجماهير هي السلطة ، وهذا شكل من أشكال الديمقراطية (حكم الشعب نفسه بنفسه بواسطة ممثلين عن طريق الانتخابات).

لقد ذكرنا آنفا بأن نظرية العقد الاجتماعي ما هي إلا نظرية تصورية وافترضية، تم فيها تفسير حركة التاريخ وبعض الوقائع المهمة، ورغم ذلك انتقلت معظم دول العالم المعاصر على المفاهيم التي نادى بها كل من جان جاك روسو أولا وجون لوك ثانيا إلى حد ما، غير أن مفاهيم وأفكار هوبز فإن الدول لم تعد تؤمن بها لأنها ملكية مطلقة تجنح نحو الدكتاتورية والأنظمة الشمولية.